كتاب الشهر

دراسة علمية هي الأولى من نوعها في المكتبة العربية

أولئك "الداعشيّات"... ما الذي أخذ بهنّ إلى الهاوية؟

انطلاقا من دراسة حالات في تضافر بين الفروع المعرفية المختلفة من علم نفس وسوسيولوجيا وانثروبولوجيا، يقدم فتحي بن سلامة وفرهاد هسروخاور في كتابهما "جهاد النساء ـ لماذا اخترن داعش؟" دليلا معمقا يكشف الدوافع الاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي قد تأخذ مراهقة الى احضان التطرف والاصولية

مع انهزام "داعش" في العراق، ثم في سوريا وبالتالي اسقاط المشروع الظلامي التكفيري الذي كان التنظيم الارهابي يمثله، برزت اشكالية جديدة امام الدول الغربية: ما العمل بهؤلاء النسوة اللواتي غرر بهن التنظيم على الشبكة الافتراضية، فالتحقن به في سوريا، معتقدات ان اليوتوبيا تنتظرهن في الجهة الاخرى من العالم؟

منذ فترة، ضج الإعلام الغربي، وخصوصا الاوروبي باسم شميمة بيغوم. الشابة البريطانية الصومالية الاصل، غرر بها "داعش"، فهربت من بريطانيا حيث ولدت، والتحقت بالتنظيم في الرقة السورية عام 2015، وهي لم تتخط الـ15 من عمرها. هناك، تزوجت داعشيا هولنديا وعاشت حتى عام 2019. لكن منذ فترة، ارادت شميمة العودة الى وطنها بعد جلاء كل الاوهام والاكاذيب التي زرعها التنظيم في رأسها، مؤكدة للاعلام انها "لم تتورط في اي اعمال وحشية ارتكبها التنظيم، وانها أمضت وقتها في سوريا فقط زوجة لاحد الانتحاريين، وانها مجرد ربة منزل". الا ان السلطة البريطانية اقفلت الأبواب في وجهها، ليموت ابنها الرضيع في احد مخيمات في سوريا، وتواجه هي قرار نزع الجنسية البريطانية منها!

هذه قصة من بين مئات القصص التي تواجهها الدول الغربية اليوم، ويضج بها الرأي العام بين مؤيد لنزع جنسية الداعشيات عنهن، واولئك الذين يعتبرون انه يجب علاج المشكلة من اساسها. فشميمة كانت مجرد مراهقة غرر بها التنظيم الذي يعي جيدا كيف يستميل الفئات الاضعف والاكثر هشاشة في المجتمع. يمكن القول ان 500 اوروبية دخلن اراضي "داعش" منذ العام 2013 حتى العام 2016.

لكن علامات استفهام عدة تطرح في هذا الاطار: من هؤلاء النساء؟ ما هي الوعود والاكاذيب والغواية التي نسجها لهن التنظيم الارهابي حتى يقبلن العيش في ظروف اجتماعية تكبلهن، وتنتقص من وجودهن كنساء، وتمارس عليهن اقسى اشكال التمييز عن الرجال في ما يخص حقوق الانسان؟

هذه ظاهرة تستحق ان تدرس، وتستخلص منها العبر للمستقبل. هذا ما فعله باحثان مرموقان، عالم نفس تونسي وعالم اجتماع ايراني، في كتابهما "جهاد النساء ـ لماذا اخترن داعش؟". فتحي بن سلامة اختصاصي في التحليل النفسي واستاذ علم النفس المرضي وعميد قسم الدراسات التحليلية في جامعة باريس ديدرو، وفرهاد هسروخاور عالم اجتماع ومدير الدراسات في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية.

الكتاب الذي صدر اساسا بالفرنسية، انتقل اخيرا الى لغة الضاد عن "دار الساقي"، ليقدم اضافة نوعية في فهم الآليات النفسية التي تدفع شرائح نسائية معينة الى الانخراط في مشروع خطير كـ"داعش"، الى جانب تقديم نظرة معمقة عن هذا التنظيم، وكيفية عمله، وايديولوجيته والاكاذيب التي يروجها، وطبيعة الحياة في الاراضي التي يسيطر عليها، خصوصا بالنسبة الى النساء.

في المقدمة، يقول المؤلفان ان "التعاون بين الفروع المعرفية في هذا المضمار قد يثمر عن رؤية شاملة للظاهرة". هكذا، يجتمع عالم النفس ليقوم بتشخيص عيادي لحالة معينة او تحليل الافادات والمعلومات، فيما السوسيولوجي او عالم الاجتماع يسعى الى الإحاطة بالمحددات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية لافعال هذه الحالة ودوافعها. في النهاية، لا ينفصل العامل النفسي عن ذاك الاجتماعي في دراسة هذه الحالات. اذا، الكتاب المقسم الى ستة فصول، هو دراسة تعاين ستين حالة لداعشيات اوروبيات من مصادر مختلفة: حالات عيادية من التحليل النفسي، وحالات من حقل العلوم الاجتماعية، وافادات حية من النساء مباشرة، اضافة الى تحقيقات اشرف عليها اختصاصيون في السوسيولوجيا والانثروبولوجيا، وتحقيقات صحافية انجزها صحافيون ذهبوا الى ارض المعركة والتقوا هؤلاء النسوة.

في هدفه الشامل، يبرز الكتاب كيف ان التركيبة النفسية للواتي ذهبن الى سوريا، او حتى حاولن الذهاب اليها "تتسم بحوادث مفاجئة في الحياة وبصدمات وازمات قلق وآلام، حاولن الابتعاد عن عائلاتهن وبلادهن، بغية الخروج كليا من تاريخهن في نهاية المطاف". بمعنى ان هؤلاء الشابات والمراهقات عانين من صدمة، او تمزقات عائلية، او كن ضحايا عنف جسدي ومعنوي. اضف الى ذلك مآزق المجتمعات المعاصرة في الغرب، حيث تفكك الرابط الاجتماعي والعائلي، وضياع المعنى والمفاهيم والمرجعيات، وانهيار الايديولوجيات والفراغ الوجودي، ذات انعكاس قوي على الافراد. فالتطرف يضرب بجذوره داخل الحياة النفسية لبعض الافراد، "لكن جذوره ضاربة ايضا داخل مجتمع ما فتئ الرابط الاجتماعي فيه يزداد هشاشة. نعيش اليوم في مجتمع بلا يوتوبيا، حيث تعيث يوتيوبيات فاسدة تمارس غوايتها على الشباب. مجتمع حيث لا يعهد للشباب بأي مكانة ولا ينظر اليهم الا كمراهقين ابديين، ممزقين بين الطفولة والرشد الى امد قد يمتد سنين عدة. مجتمع يغدو فيه المرء، كفتاة او شاب، امرا اشكاليا بالنسبة الى عدد لا بأس به من الافراد، ما قد يجعل حضور يوتيوبيات قمعية ورجعية (مثل "داعش") امرا جذابا للبعض".

على سبيل المثال، يرى المؤلفان ان بعض المراهقات اللواتي يصبحن داعشيات، يتحدرن في معظمهن من زيجات مركبة، اي انهن عايشن فشل علاقات والديهن الزوجية. غياب الاستقرار في الزواج العصري، تشعر الشابات انهن سينتهين الى رباط زوجي مماثل لما عاشته أمهاتهن، فيحاولن تجنبه. هنا، يأتي دور "داعش"، فالتنظيم الارهابي يفتش عن هذه الفئة من الفتيات، كي يصور لهن العائلة "الإسلامية" المثالية حيث يصبغ المرأة الأم بصبغة مثالية، تحجب عن اعين الفتاة حقيقة نظرة التنظيم اليها بوصفها في مرتبة ادنى من الرجل. وتعمل المواقع الالكترونية للتنظيم على ترويج صورة "نبل المرأة - الأم المرتبطة برباط ثقة مطلقة برجل يقدم على انه بطل يخوض الحروب ويتصدى لتحدي الشدائد".

هكذا، تنجذب الشابات المراهقات ـ في معظمهن ـ الى هذه الصورة التقليدية للمرأة الأم والرجل القوي، يكون الاهل في غفلة عن كل ما يجري، ولا ينتبهوا الى الامر الا بعد هرب ابنتهم الى اراضي "داعش". يتوقف المؤلفان عند الشابات اللواتي غادرن ضمن الموجات الاولى الى سوريا، أي اعوام 2012 و2013. هؤلاء اضطلعن بدور "المجنّدات" اللواتي اوكلت اليهن مهمة استقطاب المراهقات الاجنبيات. اذ تولين بعث الرسائل الالكترونية وادارة مدونات ترمي الى ترويج صورة زاهية عن وضع زوجة الداعشي في سوريا.

يأخذ الباحثان هنا مثال خديجة داري البريطانية التي تزوجت بسويدي يقاتل في التنظيم الارهابي. عملت خديجة كمجندة على الانترنت عبر بث صورة حماسية لتشجيع الشابات على الالتحاق باراضي "داعش".

طبعا، حالما تطأ الشابة ارض "داعش"، وتتزوّج من احد التكفيريين، تصبح حياتها كناية عن يوميات بين اربعة جدران (بما انه يمنع عليها الخروج الى الاماكن العمومية من دون زوجها) تمضي وقتها مع نساء اخريات او مع الطفل الذي انجبته من زوجها. بعد اشهر من الاقامة في سوريا، ينجلي الوهم والغشاء عن اعين معظم الشابات، باستثناء قلة قليلة تتماهى كليا مع هذا النظام العنيف، فتنخرط في العنف الى مداه الاقصى. الا ان الاوان يكون قد فات بالنسبة الى غالبيتهن، اذ لا يستطعن التحرر من هذا السجن الا بالهرب المحفوف بالمخاطر التي تصل الى حد القتل على يد التنظيم.

في سياق معاينة مآزق المجتمعات المعاصرة، يتوقف الباحثان ايضا عند اشكالية الهوية والانتماء عند الشابات المتحدرات من اسر

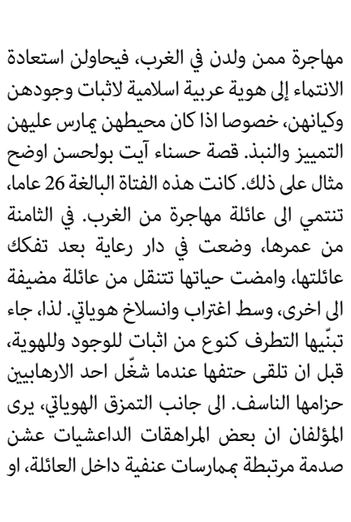

غلاف الكتاب.

"ما ان تطأ الشابة ارض "داعش" وتتزوّج من احد التكفيريين تصبح سجينة بين اربعة جدران"

مهاجرة ممن ولدن في الغرب، فيحاولن استعادة الانتماء إلى هوية عربية اسلامية لاثبات وجودهن وكيانهن، خصوصا اذا كان محيطهن يمارس عليهن التمييز والنبذ. قصة حسناء آيت بولحسن اوضح مثال على ذلك. كانت هذه الفتاة البالغة 26 عاما، تنتمي الى عائلة مهاجرة من الغرب. في الثامنة من عمرها، وضعت في دار رعاية بعد تفكك عائلتها، وامضت حياتها تتنقل من عائلة مضيفة الى اخرى، وسط اغتراب وانسلاخ هوياتي. لذا، جاء تبنّيها التطرف كنوع من اثبات للوجود وللهوية، قبل ان تلقى حتفها عندما شغّل احد الارهابيين حزامها الناسف. الى جانب التمزق الهوياتي، يرى المؤلفان ان بعض المراهقات الداعشيات عشن صدمة مرتبطة بممارسات عنفية داخل العائلة، او شعرن بأنهن كابدن عنفا ما، من دون ان يكون جسديا. هؤلاء لا يواجهن مشكلتهن، بل يخترن الهروب والمنفى عبر التوجّه الى اراضي "داعش".

تلك هي حالة سعاد مراح التي سجن والدها الجزائري في فرنسا للاتجار بالحشيش، فيما اخوها عبد القادر اتهم بأعمال عنف وقضايا مخدرات. عاشت مراح في بيئة عائلية مفككة، ومليئة بالعنف، الى ان تزوّجت عام 2005 بسلفي مغربي وانجبت منه طفلين. وبما انها كانت عاطلة عن العمل، التحقت في تولوز بدروس الامام عبد الفتاح رحوي الذي ينادي باسلام اصولي. بعد اعتداءات تولوز، سجّل لها اخوها عبد الغني شريطا تعلن فيه فخرها باعمال العنف التي ارتكبها اخوها محمد مراح، كما عبرت عن دعمها لبن لادن. في نيسان 2014، غادرت الى تركيا والتحقت بصفوف "داعش" في سوريا. العنف الاسري هو بلا ريب عامل معزز لدخول الفتيات دوامة التطرّف.

يستشهد المؤلفان ايضا بحياة بومدين التي ولدت في اسرة جزائرية مكونة من سبعة اولاد في احدى الضواحي الشرقية من باريس. ماتت امها وهي تبلغ ست سنوات، فوضعها والدها مع اخوتها في المأوى، وصارت تقل زيارته لهم بسبب زواجه. امضت حياة طفولة تعيسة ملؤها الصدمة، متنقلة من مأوى الى آخر، بسبب سلوكياتها ومراسها الصعب والعنيف. ارتبطت بأميدي كوليبالي الذي يعتبر احد المتورطين في الهجوم الارهابي الذي شن على مجلة "شارلي ايبدو" في باريس. في كانون الثاني 2005، غادرت حياة فرنسا الى تركيا، ثم سوريا حيث التحقت بـ"داعش".

انطلاقاً من دراسة هذه الحالات وخلفياتها العائلية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، يرى المؤلفان انها "تظهر الى اي حد يترك العنف، وغياب سلطة الاب، وجنوح افراد آخرين في الاسرة آثارا عنيفة في الاطفال الذي ينظرون اثر ذلك الى التوجه نحو بلاد الجهاد كنوع من الهرب نحو آفاق جديدة".

مع التقدم في قراءة الدراسة والحالات التي تستعرضها، يشعر القارئ بأن هؤلاء الداعشيات اللواتي غُرر بهن لاعتناق التطرف مذهبا، هن في الاصل ضحايا بطريقة او باخرى. ضحايا مجتمع واهل لم يوفّرا المناخ الملائم لتكوين فرد يتمتع بصحة نفسية سليمة، فانتهى بهن المطاف في مصيدة "داعش".